بقايا الفصاح

جاءتني نسخة من معجم الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية ، وهو من مطبوعات وزارة التربية في المملكة المغربية . ولمّا كنت مولعاً بتتبع ألفاظ العامة التي ترجع إلى أصل فصيح تصفحت هذا المعجم الذي صُدّر بمقدمة للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، أستاذ الحضارة والفن في جامعة القرويين وجامعة محمد الخامس ، أشار فيها صاحبها الى اشتراك اللغتين العامية والفصحى في بلاد المغرب في أكثر الأصول والقواعد ، حتى في القلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك ، وضرب الأمثال لهذه الوحدة الأصيلة فدلّت المقدمة على سعة الاطلاع في هذا الباب .

لقد مررت في المعجم بألفاظ تقع على ألسن العامة في بلادنا ، في جملتها : البهدلة والتشليح والكورجة ونظائرها ؛ ورجعت الى الفيروزابادي للوقوف على معاني البهدلة والتشليح ، فوجدت أن البهدلة إنما هي الخفّة والإسراع في المشي ، إلاّ أنّ صاحب المعجم الذي نقلتُ عنه هاتين المادتين قال في معنى البهدلة : التنقّص للأعراض والتحرش ، وقد استند في ذلك الى التاج ، ثم قال : والمعروف عند عامّة المغرب والشام ان المبهدَل هو المستقذَر لعدم انتظام لبسه أو مشيه أو عمله ، وقد اعتمد في ذلك على المتن ، وقال : بهدله ، احتقره ، في المغرب وبعض أقطار الشرق كمصر .

من عادتي إذا وقعتُ على أمثال هذه الألفاظ العامية أن أفتش عن نصٍّ في كتبنا القديمة وردت فيه لأن الاستشهاد بالنص أقوى ، إلاّ أنني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أعرف حتى هذه الساعة نصاً جاءت فيه كلمة البهدلة بمعناها العامي ، وهذا لا يمنعني من الاعتراف بقوة هذا اللفظ وأثره في لغتنا العامية .

لا نجد في أحاديثنا العامة للفظ البهدلة المعنى الذي ذكره الفيروزابادي ، أي الخفة والاسراع في المشي ، وكذلك لا نجد له المعنى الذي أشار اليه التاج ، أي التنقص من الأعراض والتحرش ، وانما معناه ما ذكره صاحب معجم الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية إذ قال : والمعروف عند عامة المغرب والشام أن المبهدل هو المستقذَر لعدم انتظام لبسه أو مشيه أو عمله ، وبهدله : احتقره ، في المغرب وبعض أقطار الشرق كمصر .

هذه المعاني الأخيرة هي التي ثبتت في لغة العامة لهاتين المادتين : البهدلة وبهدله ، وليس من الضروري أن تحافظ الألفاظ على معانيها القديمة ، ففي لغتنا ألفاظ كثيرة انتقلت من معنى الى معنى على ترادف السنين ، فالعامّة تتصرّف في الألفاظ تصرفاً غريباً ، فقد تنقل معنى المادة من وجه خاص الى وجه عام أو من وجه عام الى وجه خاص ، أو تقضي على بعض المصادر وتبقي على بعض الى غير ذلك من الأمور التي لا يغفل عن الإشارة اليها علماء اللغة ، ففي مضارع فرغ وجهان ذكرهما المبرّد في كامله ، تميم تقول يفرَغ بفتح الراء والمصدر فراغ ، وأهل العالية وهم قريش ومن والاها يقولون يفرُغ بضمّ الراء والمصدر فروغ ، فمادة : فرغ ، واحدة في أصلها ، إلاّ أن العامة جعلت لكل مصدر من المضارعين معنى خاصاً ، فالفراغ معروف معناه ، فإنّا نقول في أحاديثنا : أوقات الفراغ ، أمّا الفروغ فقد نقلته العامة في لغتها الى وجه خاص ، من اصطلاحها في هذا الباب : فروغ يدٍ ، ومعنى هذه العبارة ما يدفعه الرجل الى صاحب دكّان إذا طلب اليه أن يخرج من دكّانه ليحلّ محلّه ، فهم يقولون في هذا الوجه : فروغ يدٍ ولا يقولون : فراغ يدٍ ، كما أنّا لا نقول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أوقات الفروغ ، من ذلك يتبيّن لنا ان مصدر يفرَغ بفتح الراء حلّ محلاً وان مصدر يفرُغ بضم الراء حلّ محلاً آخر ، وكل واحدٍ منهما يختلف عن الآخر في معناه والأصل واحد .

لنرجع بعد هذا الاستطراد الى أصل الموضوع ، فالبهدلة انما هي في جملة الألفاظ التي نقلت العامة معانيها من وجه إلى وجه وأكاد لا أعرف لفظاً آخر يقوم مقامها في قوة التأثير ، فالرجل المبهدَل هو المحتقَر في كل شيء ، ولا يسدّ لفظ المحتقر مسدّه ، وكذلك لفظ : بهدلَه أي حقّره ، فهو أقوى في التأثير في لغة العامة ، حتى في لغة الخاصة من لفظ حقّره ، ولا يمرّ بنا يوم دون أن نسمع فيه هاتين المادتين : رجل مبهدَل ، حكومة مبهدَلة ، دولة مبهدَلة ، فالبهدلة غاية في التحقير في كل مظاهره .

أمّا المادة الثانية التي ذكرتها في مقدمة المقال فهي : التشليح ، وقد قال الفيروزابادي في شرحها : التشليح ، التعرية ، سوادية ، فهو يريد بذلك أنها من لغة سواد العراق ، وكأنه يعني بذلك انها عامية ، وقد توسّع صاحب معجم الأصول العربية والأجنبية بعض التوسع في شرح التشليح فقال : شالّحه عرّاه ، والتشليح هو لصوصية قطّاع الطريق وان كان هذا اللفظ ليس بعربية صحيحة حسب الأزهري ، وإنما غلب في بادية العراق ، وقد رُوي خبر موقوف على عليّ عليه السلام في شأن اللصوص المشلّحين ولا ندري ما وجه تسمية بعض برابرة الأطلس بالشلوح ، اللهم إلاّ إذا كان أهل الحواضر اعتبروهم قطّاع طريق فسمّوهم بذلك .

وكيف كان الأمر فقد وردت مادّة التشليح بمعنى التعرية ، وسواء أكانت هذه المادة لغة أهل القرى أم كانت لغة الحواضر ، انها قوية في معناها ، خصبة في دلالتها ، فانّا اذا قلنا اليوم إن قطّاع الطريق خرجوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على فلان فعرّوه ، فان قولنا هذا أضعف من قولنا : خرجوا عليه فشلّحوه ، فالتشليح أصبح لها في لغة العامة حتى والخاصة معنى لا يقوم به لفظ آخر ، فما أكثر ما نسمع في مجالسنا : التجّار يشلّحون في بيعهم والحكومات تشلّح الناس وغير ذلك ، فلو استعملنا التعرية ، بدلاً من التشليح ، لما كان لاستعمالنا الأثر الذي نريده .

بقيت المادة الثالثة التي أتيت على ذكرها في الصدر وهي : كورجة ، وقد شرحها صاحب المعجم الذي نقلتها عنه فقال : باع كورجة ، أي بلا وزن ولا كيل ولا عدّ ، وهي تركية معناها : العمى ، ووجه الشبه ظاهر بين هذه الآفة والبيع الأعمى بدون تبصر ، وهو البيع بالجزاف .

إني أهتم بالألفاظ العامية التي ترجع الى أصل فصيح ، أمّا الألفاظ الأجنبية فهي ليست موضع اهتمامي ، على أن الكورجة دارجة على الألسن في دمشق ، ولها معنيان : حقيقي ومجازي ، أما المعنى الحقيقي فهو ما دلّ عليه صاحب المعجم : البيع بلا وزن ولا كيل ولا عدّ ، وقد يراد بذلك أيضاً في لغتنا العامية بدمشق : النهب والتشليح في البيع ، وأمّا المعنى المجازي فهو في قولنا : أصبح الحكم كورجةً ، أي لا نظام ولا قانون ، كلّ واحدٍ يعمل بما يريد .

إني آسف على أن لا تكون هذه المادة من أصل عربي فصيح يمكن استعمالها في المخاطبات والمكاتبات ، لأنّ لها في أذهان العامة من القوة ما ليس لغيرهـــا .

* * *

هذا ما أكتفي به في هذا المقام من الاستشهاد ببعض ألفاظ وردت في معجم الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية . وقد نشّطتني هذه الألفاظ للرجوع إلى موضوع بقايا الفصاح ، الذي عالجته في مجلتنا من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سنين ثم انقطعت عنه ، ولست أعرف موضوعاً ألذّ منه ، أما لذّته فحسبه انه ينبش لنا الألفاظ الفصيحة التي بقيت في لغتنا العامية بعد أن مرّت عليها أحقاب طويلة ، إنّا نرى في هذه الألفاظ روح العصور التي استعملت فيها . لقد مرّت على لغتنا عصور كثيرة كان الناس في بعضها يعربون في أحاديثهم ولا يلحنون ، ثم اتسعت الفتوح ، فاختلط العرب بالأعاجم ففسدت اللغة وكثر اللحن ، لقد نجد في بعض العصور أخباراً تدلّ على أن اللحن كان مكروهاً في المجالس ، من ذلك ما اتصل بنا من أخبار بلال بن أبي بردة على أيّام عمر بن عبد العزيز ، كان على عسس بلال أبو يزيد بن زريع ، قال له بلال : بلغني أن أهل الأهواء يجتمعون في المسجد ويتنازعون فاذهب فتعرّف ذلك ، فذهب ثم رجع اليه فقال : ما وجدت فيه إلاّ أهل العربية ، حلَقة ، حلَقة ، وفتح لام حلقة ، فقال له بلال : ألا جلست اليهم حتى لا تقول ، حلَقة ، حلَقة وهو يريد بذلك أن حلْقة بتسكين اللام .

من هذا نستخرج أن اللحن كان مكروها في أيّام عمر بن عبد العزيز ، ومن هذا الشكل ما نجده في معجم الأدباء في أخبار ابراهيم بن عبد الله النجيرمي ، كان ياقوت في مصر سنة اثنتي عشرة وستمائة ، فحدّثه بعض أهلها قال : حُدّثتُ أن الفضل بن عبّاس دخل على كافور الاخشيدي فقال له : أدام الله أيّام سيدنا الأستاذ ، فخفض الأيّام ، فتبسّم كافور الى أبي اسحق النجيرمي ، وهو من رجال النحو واللغة ، وتبسمه هذا ظاهر معناه ، فيه استنكار اللحن .

كلّ ما يهمنا من هذه الأخبار أن اللحن كان مكروهاً في بعض عصورنا البعيدة ، وسواء أكان الناس يلحنون أم كانوا لا يلحنون إنّا نجد في لغتنا العامية يومنا هذا بقايا مما كان يقع على الألسن ، بقايا فصاح وبقايا استعمالات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نظنها عامية وقد وردت في كلام القدماء ، وليس المهم أن الذين وردت في كلامهم قد يُستشهد بهم أو لا يُستشهد ، وإنما المهم أن هذه البقايا عاشت حتى أيّامنا ، من ذلك قولنا في دمشق : كنّك فلان أو كنّك أخوه ، أو قولنا : كنّي خادمك ونحن نريد بذلك أن نقول : كأنّك فلان أو كأنّك أخوه ، أو كأنّي خادمك . وقد نجد في ترجمة إبراهيم ابن سفيان الشوري في معجم الأدباء هذا الاصطلاح نفسه : كَنّك عقاب ، بفتح الكاف الأُولى أو كَنّي ما أعرفك ، أي كأنّك عقاب وكأنني ما أعرفك ، وهـذا ما أشرت اليه من تصرف العامة في أمور اللغة كما تصرّفت في معنى الخشخشة ، وأرجو أن أعود الى هذا الموضوع في الآتي .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net